بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين نبينا محمد وعلى آله وأصحابه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، أما بعد :-

فهذه ترجمة مختصرة للعلامة الشيخ القاضي قاسم بن مهزع رحمه الله تعالى شيخ البحرين وقاضيها الأول ولد سنة ١٢٦٣هـ وتوفي سنة ١٣٥٩هـ ، استللتها من كتاب **"القاضي الرئيس قاسم بن مهزع"** للأستاذ الأديب مبارك بن راشد الخاطر ت١٤٢٢هـ رحمه الله تعالى ، إذ أقوم بالعناية بكتابه هذا وسينشر قريبًا بإذن الله تعالى ، فالترجمة وحواشيها للأستاذ مبارك رحمه الله تعالى ، فأي تعليق مني سأذكر في آخره كلمة (المعتني) ، للتميز بين حاشية الأستاذ مبارك وبين تعليقي.

والله المسؤول أن ينفع بهذا المختصر ، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أبو البدر أحمد بن عايد العنزي

ليلة الجمعة ٨ ربيع الأول ١٤٤٠هـ

النسب والعشيرة

ولد الشيخ القاضي قاسم بن مهزع بن فايز في بلدة عسكر ، الواقعة على الساحل الشرقي لجزيرة أوال ، كبرى جزر أرخبيل البحرين.

كان جده لأبيه قاسم بن فايز ينتمي إلى عشيرة سبيع ، وهي بطن من قبيلة همدان ، وأن بعضًا من أفخاذ سبيع[1] هذه كانت تتخذ من شرقي الجزيرة العربية المواجه للخليج العربي منازل ومنتجعات، ومن بينها كانت جزيرة العماير الواقعة على مرمى حجر من الساحل الشرقي للجزيرة العربية ، بين رأس (أبوعلي) في الشمال ، ومدينة الجبيل في الجنوب.

من هذه الجزيرة كان الجد قاسم بن فايز يجيء يتردد على مدينة المحرق قصبة جزر البحرين آنذاك في تجارة ، من بضاعتها : الصوف والوبر والسمن واللبن المخيض المجفف ، وما إلى ذلك من نتاج الثروة الحيوانية ، يأتي بها من مصادرها في البر الشرقي للجزيرة العربية.

كان قاسم يمكث أيامًا في المحرق ، فإذا ما باع كل ما جاء به من بضائع تزود من أسواقها من سلع[2] الأوبة إلى دياره كل ما يحتاجه الإنسان البدوي – آنذاك – في تلك النواحي ، وتأتي القهوة والأرز والمنسوجات على رأس تلك السلع.

ومدينة المحرق آنذاك كانت جديدة في بنائها الأخير ، الذي ابتدأ على يد قبائل العرب النازحة إليها من الزبارة قبل عام ١٨١٠ بقليل ، لكنها كانت تدرج سريعًا في الاتساع

---

(١) منها المهازعة من سبيع ، أهل الأحساء. (المنتخب في قبائل العرب ص٢١٥) ، الطبعة الثانية – دمشق.

(٢) كذا في المطبوع ولعل الصواب : تزود من أسواقها من سلع – قبل الأوبة إلى دياره – كل ما يحتاجه الإنسان البدوي .. إلخ.(المعتني).

والازدهار.

وهي منذ أنشأتها هذه القبائل النازحة ، ذات سفن الغوص ، والنقل البحري (القطاعة) ، أصبحت مدينة بحرية كبيرة ، وثغرًا بحريًا مهمًا ، وأسواقها ككل أسواق المدن البحرية المهمة هدفًا لتجار البلاد الشرقية القريبة منها والبعيدة ،يأخذون منها ويعطون.

ومجتمعها ككل مجتمعات المدن الساحلية الأخرى في الخليج التي اتخذت من تجارة الغوص – آنذاك – مكسبًا وثراءً ،وهو مجتمع يتسم عادة بسمات الطيبة المتوارثة ، وكل الأخلاق الوثوقية الأمينة.

وأصبحت المحرق – آنذاك – ملتقى كثير من الأغراب الآتين مما حولها من الأقطار المجاورة ، يأتونها إما ليتكسبوا من أعمال البحر ، أو ليزاولوا أعمالًا مهنية في داخلها.

لكن أهل المحرق – كعادة العرب يومذاك- يتحاشون كثرة تواجد الأغراب العزاب فيما بينهم ، لذلك تراهم يشيرون على هؤلاء العزاب بالتأهل من نساء المدينة والاستقرار بها ، فكان قاسم بن فايز – جد شيخنا القاضي- ممن عمل بهذه المشورة في وقتها ونفذها ، فبنى على إحدى كرائم الأسر المحرقية.

لكنه بعد فترة وجيزة من ذلك اضطر للعودة في تجارة إلى أهله وعشيرته في جزيرة العماير وما حولها ، بيد أنه أوصى أصهاره بالعناية بزوجته ، فإن أنجبت له ابنًا ذكرًا فليسموه مهزعًا ، وإن أنجبت أنثى فإليها ، كانت الزوجة حبلى في أشهرها الأولى يوم تركها قاسم وغادر المحرق.

وتلد الزوجة المحرقية مهزعًا ، كان الزمن أول عهد حكومة الشيخ عبدالله بن أحمد الفاتح

في البلاد[1] ، ويشب مهزع عن الطرق ، ويدخله أهل والدته[2] أحد الكتّاب ، ثم إلى إحدى المدارس الدينية التي تعج بها المحرق آنذاك.

كان مناخ التعليم آنذاك مناخ علمي رباني في أغلب مواده ، لذا فقد أخذه مهزع على يد علماء ربانيين أفذاذ مثل الشيخ عثمان بن سند ، والشيخ عبداللطيف بن عبدالمحسن الصحاف ، والشيخ عثمان بن عبدالله ابن جامع ، وآخرين.

في هذا المناخ عاش مهزع وتربى ، وفيه أصبح شيخًا بعد ذلك.

وفي المحرق تزوج الشيخ مهزع ، وإنه لكذلك – وقبل أن ينجب – إذ جاء إلى المدينة نفر من عشيرة آل أبي عينين قادمين من بلدتهم عسكر ، لقضاء بعض شؤونهم ، فوجدوا في الشيخ مهزع ضالتهم لتولي القضاء فيهم والإمامة في مسجدهم ، فقد كانوا يفتقرون إلى مثل الشيخ مهزع لتولي هذه المهمة ، وحين خاطبوه في الأمر وافقهم على النزوح من المحرق ، والمجيء إليهم في بلدتهم.

وفي عسكر قام الشيخ الشاب بمهمته خير قيام ونجح في أن يصبح بعد ذلك ، القاضي والإمام لا في عسكر وحدها بل فيما جاورها كجو ، والدور ، ومصايف سترة وزويد ، وفارسيه على ذلك العهد.

كان أهل عسكر وكثير من عرب تلك النواحي ينتقلون صيفًا بأجمعهم إلى تلك المصايف ، وكانت سترة تفوز بالسهم الأوفر منهم ، لذا فقد كان الشيخ مهزع ينتقل بأهله إليها مع المنتقلين.

---

(١) تولى إمارة البحرين بعد وفاة أخيه سلمان من عام ١٨٢٠-١٨٤٢.

(٢) لا نعرف هل عاد قاسم بن فايز إلى زوجته في المحرق أم لا ، لكن كل ما نعرفه أن ابنه مهزع تربى في كنف أهله لأمه بالمحرق.

في ذلك الوقت كان الأمير الشاب علي بن خليفة الخليفة [1] المصطاف الأول في جزيرة سترة بأجمعها ، وكان يشمل برعايته كل المصطافين فيها ، هناك توطدت بينه وبين الشيخ الشاب مهزع أواصر الصداقة ، ثم تعززت بعد ذلك بمودة وثيقة ، فكان الأمير علي يبِرُّ مهزعًا ويجزل له العطاء.

مجيء الشيخ قاسم بن مهزع

في شتاء عام ١٨٤٧ وفي بلدة عسكر ، جاء الشيخ قاسم بن مهزع إلى الدنيا.

يقول الشيخ محمد الحباب بن أحمد بن مهزع : (أن عمه الشيخ قاسم ولد بعسكر ، وأن والدته قد أشركت معه في ثدييها الشيخ عيسى بن علي [2] أثناء ما كانوا جميعًا مع (المكايظة [3]) في سترة).

ويقول : (أنه كانت بين مهزع والأمير علي بن خليفة مودة وأخوة ظاهرتين للعيان في ذلك الزمان ، وذلك لما يتمتع به الاثنان من علم رباني ، وصلاح وتقوى ، لهذا نشأت بين الصديقين مودة ورحمة ، لم تنفصم عراها إلى الأبد ، لكن مودة ابنيهما [4] كانت أعظم ، كانت

---

(١) راجع فصل : عصر الشيخ قاسم (الحقبة الأولى) ص ٢٤ .

قلت : هذه الإحالة على ترقيم الطبعة الثانية للكتاب الأصل الذي استللت منه الترجمة "القاضي الرئيس قاسم بن مهزع" (المعتني).

(٢) الشيخ عيسى بن علي بن خليفة حاكم البحرين ١٨٧٠ - ١٩٢٣

(٣) المكايظة : المصطافين.

قلت : والاصطياف هو اتخاذ مكانا معينا لقضاء الصيف فيه.(المعتني)

(٤) يعني الشيخ عيسى بن علي والشيخ قاسم.

تعززها أخوة في الرضاعة).

ويترعرع الصغير قاسم ، ويدرج فوق ثرا بلدة الصحابي الجليل صعصعة بن صوحان العبدي ، وفيها أشرقت عليه فطنته ، إلا أنه يفاجأ يومًا بزيارة الأمير علي بن خليفة للبلدة ، ويجتمع برجالها فيسمعه يقول لهم : أنه جاء ليأخذ الشيخ مهزع منهم ليختص به وليكون إمام مسجده في المنامة ، مقر إمارته إذ ذاك ، وعزز ذلك بقوله لهم أن الشيخ مهزع كبير في إمامته على بلدتهم الصغيرة عسكر ، وهو أولى به.

ويستجيب أهل البلدة – على مضض منهم – لطلب الأمير علي ، ويتركون الأمر للشيخ مهزع وحده إن شاء انتقل إلى الأمير أو بقى بين ظهرانيهم ، ولكن هل لمهزع من الأمر شيء ، والأمير يطلبه ليزيده تشريفًا بجعله إمام دار الحكم في المنامة؟

لذلك فقد انتقل الشيخ مهزع بأهله إلى المنامة ، فأسكنه الأمير علي في بيت كبير قرب مقر حكمه[1] ، وجعله إمام مسجده الخاص[2] وأجزل له العطاء فوق ما يرضيه ويستره ، كان ذلك حوالي عام ١٨٥٣ يوم كان الفتى قاسم بن مهزع يدرج نحو الثامنة من عمره.[3]

---

(١) هما بيته ومجلسه اللذان كانا إلى عهد قرب مقر بلدية المنامة القديم ، واللذين أصبحا الآن موقفا للسيارات الصغيرة بوسط سوق المنامة.

(٢) هو أقرب مسجد إلى هذه المنطقة شمالي بيت القاضي ابن مهزع وخلف صيدلية المسقطي القديمة.

(٣) لم تدون ولادة الشيخ قاسم بن مهزع بتاريخ ، ولكن إذا أجمع كل من ابني أخيه الشيخين الجليلين محمد الحباب وعبدالرحمن ابني أحمد بن مهزع ، ومن في درجتهم من العلم والفقه ، وكذلك بعض من اتصلنا بهم من المعمرين من سكان بلدة عسكر ، على أن ولادة الشيخ كانت بهذه البلدة ، وأنه أخ من الرضاعة مع الشيخ عيسى بن علي ، وأنه يكبره بحوالي عام ، وأنه كان من المعروف للجميع أن الشيخ عيسى بن علي ولد عام ١٨٤٨ ، تأكد لنا أن الشيخ قاسم بن مهزع ولد عام ١٨٤٧م.

في هذا المناخ الأميري ، وفي بحبوحة من العيش ، تنشّأ الفتى قاسم وأخوته أحمد وإبراهيم ، تنشئة حسنة ، بين أترابهم أبناء الأمير علي بن خليفة وهم عيسى وأحمد وإبراهيم وخالد ، وأبناء الشيوخ الآخرين.

كان الفتى قاسم وأخوته لا يرون إلا مع أبناء الشيوخ من الأمراء في جدهم ولعبهم.[1]

(١) لم يهمل آباء هؤلاء الفتية ومؤدبوهم تربيتهم وإنباتهم نباتًا حسنًا ، فلم يتركوا للعفوية والصدف في تقويمهم ، فكان من نتيجة ذلك أن أصبح هؤلاء الفتية ممن لا يستهويهم اللعب كثيرًا ، وخاصة على مقربة من بيوت الأمراء ، فإن هم خرجوا إلى البساتين ليقضوا سحابة يومهم في النزهة والقصف ، لم يخرجهم ذلك عن جادة التعقل والوقار.

كان من ألعاب هؤلاء الفتية – آنذاك – امتطاء الخيول والتسابق بها والتبارز بمختلف أنواع السلاح الناري والأبيض ، والتصارع فيما بينهم ، كانوا بحق أبطالًا صغارًا ، كما كان آباؤهم أبطالًا كبارا ، في ذلك الزمن كان النظام الانضباطي في بيوت آباء هؤلاء الفتية وأمثالهم صارما ، فكل صغيرة وكبيرة لا تخرج عن إرادتهم الأخلاقية ، وكل أوقات الأكل والنوم والاستيقاظ مؤقتة بدقة ونظام ، فتقاس المدة التي تفصل وقت كل عادة من هذه العادات بأوقات الصلاة الخمس المكتوبة.

فبعد صلاة الفجر مثلا يكون الإفطار ثم تلقّي الدروس من المشايخ العلماء ، وقبل صلاة الظهر بساعتين يكون الغداء ، ثم القيلولة ، وبعد صلاة الظهر فلا نوم ولكن قضاء ما استجد من حاجات ، وبعد صلاة العصر يكون تلقّي الدروس مرة أخرى ، وبعد صلاة المغرب مباشرة يأتي العشاء ، وبعد صلاة العشاء ، لا يكون شيء في الغالب غير النوم للاستيقاظ في البكور ، ثم ما يكون بين هذه الأوقات من مجالسة الأولاد لآبائهم وأمرائهم والتخلق بآدابهم في المجالسة ، والنظام ، ما لم تحدث طوارئ الحروب والاضطرابات المحلية وما أكثرها في تلك الأيام.

تلقيه العلم

قبل أن ينتقل الأب مهزع بأهله إلى المنامة ، كان لا يقطع صلته بأهل العلم فيها ، فكان يزورهم من آن لآخر ، وذات مرة صحب ابنه البكر قاسم معه في واحدة من هذه الزيارات ، فرآه الفقيه الشيخ محمد بن راشد الحسيني ، فتوسم فيه الذكاء والنبوغ فقال لوالده : لو أبقيته عندي في المنامة للدرس ، فلم يمانع مهزع في ذلك ، فأبقى الفتى قاسم عند الشيخ الحسيني للدرس والتحصيل ، كان ذلك قبل انتقال الأب مهزع إلى المنامة بعام.

وحين انتقل مهزع إلى المنامة ، كان ابنه الصغير قاسم قد تلقى عن شيخه الحسيني مبادئ العلوم الدينية ، فحفظ القرآن الكريم ، والعشماوية في الفقه المالكي ، والرحبية في الفرائض ، والآجرومية في النحو ، كل ذلك وسنه لم تتجاوز العاشرة.

ثم استمر يأخذ عن شيخه ، فكان يختلف عليه في مسجده صباح مساء، فيأخذ عنه توسعًا لما أخذه عنه سابقًا مثل : ألفية ابن مالك في النحو ، وشيئًا من علم الفلك والحساب.

لقد اشتهر الفتى قاسم – إذ ذاك – عند القاصي والداني بذكائه الخارق وذاكرته القوية ، وبقيت هذه الميزتان له ، وميزات أخرى عظيمة ، ظلت معقودة اللواء له حتى وفاته ، وسنذكرها في وقتها ومكانها ، فقد كانت من أهم العلامات الفارقة التي اتصف بها بين علماء وطنه في هذا العصر.

كان حاله في الدرس والتحصيل عجيبًا ، فهو إذا ما أراد المذاكرة في دروس شيخه فإنه لا يفارق مسجد أبيه ، فإذا ما قضيت صلاة فيه ، وخرج الناس منه ، يبقى هو فيغلق عليه أبواب خلوة المسجد ، ويظل يستظهر تلك الدروس ، ولا يفتح أي باب من أبواب تلك الخلوة مهما طرقه الطارق.

كان هذا دأبه أثناء المذاكرة ، فيما عدا مكثه في البيت لتناول طعامه ، أو نومه الذي كان قليلًا من الليل ما يهجع فيه ، وفيما عدا بقائه عند شيخه لتلقي الدروس أو تسميعها.

ولقد سمع عن شيخه الحسيني أنه كان يقول عنه : حافظة قاسم كحافظة المعري[1] ، يحفظ إن شاء – ليست دروسي فحسب – بل شروحي عليها بنصها الحرفي.

وسمع عنه – دائمًا – يحكي لخلصائه الحكاية التالية ، ممتدحًا رجولة الفتىٰ قاسم المبكرة ، وتعشقه للعلم ، ومحاولة محاكاة علمائه في تصرفاتهم التعليمية.

كان الشيخ الحسيني يقول : (دخلت مرة إلىٰ بيتي بعد صلاة العصر لبعض شؤوني ، والصغار ينتظرون داخل خلوة المسجد ، فأبطأت عليهم قليلًا ، فلما أقبلت داخلًا الخلوة عليهم ، سمعت لغطًا بحديث كأنه لغطي أثناء إلقائي الدروس ، فعدت أدراجي وتواريت خلف أحد أبواب المسجد ، دون أن يشعر بي أحد من الطلبة ، بحيث أراهم في الخلوة ولا يروني، هناك أبصرت الفتىٰ قاسم يجلس مكاني وقد تحلق وله الصبية الصغار ، وهو يلقي عليهم درسي المقرر أن أعطيهم إياه في تلك الساعة.

فيا لشدة دهشتي حين سمعت الولد قاسم وهو يشرح الدرس عن ظهر قلب من غير ما تلعثم ولا تلجلج ، لكأنه يقرأ ذلك في كتاب بين يديه ، فلما اكتفيت بما اكتشفت من حال الفتىٰ قاسم والأولاد في تلك الساعة ، دخلت عليهم الخلوة كعادتي في المجيء إليهم دون أن يشعروا بتلصصي عليهم.

---

(١) المعري : هو أبو العلاء أحمد بن عبدالله بن سليمان القضاعي التنوخي المعري ، ولد سنة ٣٦٣هـ في بلدة معرة النعمان في سوريا ، شاعر وفيلسوف ولغوي وأديب عربي من عصر الدولة العباسية.
ينظر ترجمته في (سير أعلام النبلاء ١٨/ ٢٣).(المعتني).

وأسررت الأمر في نفسي فلما كان فجر الغد ، وجئت أسلم على الشيخ علي بن خليفة في مجلسه ، همست إليه بما أبصرته من حال الفتى قاسم ، فأجابني قائلًا : نرسله إلى الأحساء ، فقلت : صغير ، فلم يرد علي ، ولكنه لم يرسله في ذلك الوقت).

يتمه

حين نلتزم الأخذ بالتسلسل التاريخي لمجيء الحوادث المهمة في حياة الشيخ قاسم ، لا يسعنا إلا أن نثبتها في الزمان والمكان اللذين حدثت فيهما ، وإن كان الفصل الذي أثبتناها فيه ، معقودًا لغيرها من حوادث أخرى مهمة أيضًا في حياة الشيخ.

لذا فقد جاءت حادثة يتمه زمنيًا أثناء رصدنا لخط سير تلقيه العلم ، ففرضت علينا إثباتها في هذا الفصل ، لكن الأمر قد يختلف في تسجيل هذه الحادثة تاريخيًا عن أخواتها من الحوادث الأخرى في حياة الشيخ.

حادثة يتمه هذه أصبحت مؤثرًا مهمًا في دفع حياته التعليمية إلى الأمام ، حادثة يتمه هذه أصبحت جسرًا في نقلته ، وتحوله إلى طلب العلم خارج البلاد.

تتلخص الحادثة في أنه حينما كان الفتى قاسم في سن الرابعة عشرة من عمره ، وفي ظهر أحد الأيام حين كان يستذكر دروسه في خلوة مسجد والده ، جاءه طارق بباب الخلوة ، وأنبأه عن احتضار أبيه مهزع.

ففزع الفتى ، فترك باب الخلوة مفتوحًا ، وجاء إلى والده فوجده في الرمق الأخير يجود ببقية أنفاسه ، فبقي بجانبه حتى توفي ، ثم انطلق بالنبأ إلى الأمير علي بن خليفة فوجد فيه العزاء

والمواساة.[1]

بعد وفاة أبيه تفرغ كلية لطلب العلم ، كان قبل ذلك يصرف جزءًا من وقته للعناية بوالديه ، وقضاء ما يلزمهما من حوائج خارج المنزل ، وهذا ما عرف عنه في حي الشيوخ بالمنامة منذ حط رحاله بها مع أهله.

أصبح جل وقته مخصصًا لطلب العلم ، وواصل الحياة في كفالة الأمير علي بن خليفة ، واستمر في دراسته على شيخه الحسيني.

كان كافله يجري عليه ما يجري على أولاده ، بل إنه ليبره عليهم في بعض الأحيان ليتمه[2] ، وأصبح قاسم لا يقطع صلته بمجلس كافله ، وإنه لينتهز الفرصة في بعض الأحيان فيقرأ على رواد المجلس ما حفظ من دروس الشيخ الحسيني وشروحها ، عن ظهر قلب.

لكن الفتى ما كان يكتفي بتلقي دروس شيخه الحسيني فقط ، بل كان يختلف إلى علماء آخرين غيره كلما استطاع إلى ذلك سبيلا.

---

(١) كانت التجمعات الأسرية على ذلك العهد تتخذ لها من أكبرها وأغناها وليًا لأمرها ، يفزع إليها أفرادها إذا حزبهم أمر ، وكان الشيخ علي بن خليفة علاوة على كونه أميرًا للمنامة ، فإنه أيضًا ولي أمر كل الأسر من حوله في جميع شؤونها.

(٢) (.. فأنا الحبة التي بذرها الهمام الإمام جدك الأجل (علي) ولما بسقت سقاها هيكل الفضل والمعالي... والدك ، ثم الكل من حضراتكم جعل ثمرها صدقة في الصلاح والمصالح ...) من رسالة مطولة بعث بها الشيخ قاسم إلى الشيخ عبدالله بن عيسى الخليفة بتاريخ ١٦ ربيع ٢ / ١٣٣٨هـ.

إلى الأحساء

كل هذا المناخ العلمي الإسلامي الذي لا ينازعه منازع في البحرين ، ولا أثر لمناهج علمية أخرىٰ في البلاد ، ولا مشاركة له في أساتذة ولا معاهد في ذلك الوقت.

كل هذا المناخ ، وكل هذه الأرضية الإسلامية ، أراد الفتىٰ قاسم – لفرط طموحه العلمي – تجاوزها إلىٰ ما هو أعم وأشمل منها.

تلفت فلم يجد مكانًا قريبًا يحقق له ذلك ، غير الأحساء ، كان الذين مارسوا هذه التجربة من قبله ، يختلفون عنه في أنهم ذهبوا إلىٰ الأحساء[1] وكلهم علىٰ أقل تقدير قد جاوزوا العشرين عامًا ، بل إن من بين هؤلاء الطلبة من حط رحاله للتعليم فيها وسنه قد جاوزت الأربعين ، أما هو فقد هبطها وسنه لا تتجاوز الخامسة عشرة.

كان وراء هبوط الفتىٰ إلىٰ الأحساء جهده الخاص ، ورغبته الملحة في إقناع أهله وذويه بوجوب السماح له بالذهاب إلىٰ ذلك الإقليم لتلقي العلم الرباني ، ووراء ذلك أيضًا وعد من الأمير علي بن خليفة ، بتنفيذ ذلك.

غير أن الأمير علي نسىٰ وعده ، ذلك الذي أعطاه للفتىٰ قاسم عبر تفوهه به للشيخ الحسيني ، وقبل أن يفقد الفتىٰ أباه ، وهل يأخذ ذلك الوعد حيزًا في ذاكرة الأمير علي ،

---

(١) الأحساء أو هجر القديمة ، كانت على مدى القرون الثلاثة الماضية وحتى منتصف القرن العشرين ، مهوى أفئدة طالبي العلم الإسلامي الرباني ، يأتونها من فجاج الأرض الإسلامية ، من الهند وأفريقيا والشرق الأوسط ، فتمتلئ بهم الأربطة ، التي أنشأها العلماء الصالحون ، والتي هي بمثابة أقسام داخلية للطلبة الأغراب ، مثل رباط الكوت ، والرفعة ، ثم الصالحية ، يقيم فيها طلاب العلم حتى يبلغوا مأمنهم بعد نيلهم الإجازة العلمية ، وكل نفقات هؤلاء الطلبة كانت تصرف من ريع الأوقاف التي حبسها أهل العلم من الأثرياء على هذه الأربطة.

وهو الذي نصب نفسه للحوادث الجسام ، قائدًا لجيش أخيه محمد بن خليفة يخمد فتن الخروج على حكمه أينما نشبت.

لكن الفتى قاسم لم ينتظر أن يتذكر الأمير علي وعده ، فأجمع أمره وخاطبه في ذلك ، فنال موافقته ووعده خيرًا في أمر تجهيزه للسفر إلى الأحساء.

ومعنى ذلك من كافل هو الأمير علي المعروف ببذله وعطائه للعلم والعلماء ، أن يذهب الفتى قاسم لطلب العلم خارج البلاد ، ويعود بالإجازة العلمية ولو بعد سنين ، وهو في كنف رفادة أميره ، ناهيك بما سيحمله الفتى قاسم معه إلى الأحساء من توصية أميرية سيكون لها شأن عظيم عند العلماء الموصى بها إليهم هناك ، وما سيحمله الفتى قاسم أيضًا من هدايا إلى أولئك العلماء.

وقد تم ذلك – كالعادة المتبعة – وهبط الفتى قاسم إلى الهفوف ونزل على الشيخ العلامة عبداللطيف بن إبراهيم المبارك ، في مدرسته بالرفعة.[1]

وبالرفعة قضى الفتى قاسم عامًا واحدًا يأخذ عن شيخه زيادةً وتبحرًا في الفقه والتشريع واللغة العربية وآدابها ، وبعد نهاية العام مرض شيخه وطال به المرض ، فلم يستطع الفتى قاسم ولا بعض تلامذة الشيخ البقاء هكذا بلا تفقيه ، خصوصًا وأن الشيخ أصبح لا يقوى على حضور مجلس الدرس ، فتحولوا بإجازة منه إلى بلدة (المبرز).

وفي المبرز هذه ، وهي تحتل ضاحية جميلة من ضواحي الهفوف ويقيم بها آنذاك العديد من الطلبة المسلمين من أجناس شتى ، قضى الفتى قاسم سنتين أو تزيد قليلًا في التحصيل في موضوع دراساته على يد شيخيه : محمد بن عبدالمحسن ، ومحمد بن كثير.

---

(١) حي من أحياء مدينة الهفوف بالأحساء.

على هذا النسق كان تلقي الفتى قاسم للعلم في أول رحلة علمية له خارج بلاده.

رحلة إلى بلد قريب جدًا من بلده ، ومجتمع قريب الشبه من مجتمعه آنذاك ، كذلك فقد تيسر له مثلما تيسر لرفاقه طلبة البحرين هناك طبيعة المناخ إياه الذي عاشوه في بلادهم مما ساعدهم في رحلتهم العلمية والعودة بإجازتهم من مشايخهم.

وكان لهؤلاء الطلبة – في رحلة علمية قريبة كهذه – زيارة أو زيارتين في العام يجيئون فيها إلى ذويهم في البحرين. [1]

بعد ما يزيد على ثلاثة أعوام قضاها الفتى قاسم في الدراسة في الأحساء ، عاد إلى البحرين ، وعمره يدرج إلى التاسعة عشرة ، عاد وقد أصبح شيخًا بإجازة علمية من شيوخه هناك.

وبذلك أصبح الشيخ قاسم ذا إجازتين علميتين ، أولاهما من شيخه الحسيني ، نالها قبل أن يضع رجله في السفينة إلى ميناء (العقير)[2] ثم الأحساء.

بعد أوبة الشيخ إلى المنامة واستقراره فيها لبعض الوقت ، اقترن بزوجته الأولى ، ومن ثم أصبح رب أسرة وبيت ، وهي شهادة زكانة وإحصان لطالب العلم آنذاك.

---

(١) كان الطلبة المسلمون في الأحساء آنذاك – أولئك الذين من مواطن إسلامية بعيدة – لا يغادرونها ، لا صيفًا ولا شتاءً حتى يستكملوا دراستهم ويأخذوا الإجازة العلمية من أشياخهم.

(٢) ميناء العقير ، أشهر الموانئ الشرقية في شبه الجزيرة العربية قبل حوالي نصف قرن من الزمان.

في أم القرى

بعد أن تزوج الشيخ غادر البلاد إلى الديار الحجازية لتأدية فريضة الحج ، وما أن هبط مكة حتى راح يجلس إلى علمائها وعلماء البلاد الإسلامية الأخرى ، القادمين لحج بيت الله الحرام واحدًا بعد واحد ، وحين انتهت مناسك الحج ، قصد إلى المدينة ، وهناك أيضًا جلس إلى علماء الحرم النبوي وأخذ عنهم علومًا ربانية محضة ، ثم قفل راجعًا إلى مكة المكرمة.

وهناك بقي مجاورًا للبيت العتيق ما يزيد على العام ، قضاه مجدًا في التحصيل ، حتى إذا عاد عليه الموسم الثاني للحج أداه مرة أخرى ، وشد الرحال إلى البحرين.

وفي الديار الحجازية وفي مواسم الحج – كما هي العادة – يتواجد كثير من العلماء الأجلاء المبرزين في جميع مجالات الشريعة الإسلامية ، لذلك نجد أن من الأمنيات العزيزة لدى طلاب العلوم الشرعية آنذاك أن يذهبوا إلى الحجاز ، ومكة المكرمة بالذات لتلقي هذه العلوم من مصادرها عند هؤلاء العلماء ، الذين يجيئون عادة من كل أنحاء المعمورة ، فكان الطلاب الذين يحضرون تلك المواسم يعيشون في مناخ علمي عالمي ، لا يتوفر لكل منهم في بلاده.

كان الشيخ قاسم الذي عاش هذا المناخ العلمي العالمي[1] مدة تزيد على العام مفخرة بين

---

(١) كان طلاب العلم في بلاد المسلمين لا يدفعون مالًا في تحصيله ، غير ما ينفقونه على ذهابهم وإيابهم وطعامهم وإقامتهم ، وحتى الطعام كان يكفل لهم في كثير من الأحيان ، هكذا عاشت الأمة الإسلامية في مجانية العلم منذ مجيء القائد الأعظم محمد رسول الله.

طلابه وعلمائه.

كان هؤلاء يطرون بإعجاب سلسلة المدهشات التي يتميز بها الشيخ الطالب ، من إعجاز في البلاغة ، إلى لسان مقوم فصيح ، لا ينطق ولا يعبر إلا بلغة عربية فصيحة ، إلى ذاكرة حافظة واعية ، إلى مقدرة في تخريج الأحكام من التشريع الإسلامي ليس كمثله تخريج ، أثبت فيما بعد أنه صادر من فكر مصلح مجدد.

لقد أفاد الشيخ من هذه الرحلة أيما إفادة ، ذهب إليها بفكر متفرغ للتحصيل ، وقلب مطمئن في نفسه وأهله ، فقد خلفه في رعاية أهله أرحم خلف وأقدره وهو الأمير علي بن خليفة ، الذي تكفل أيضًا بنفقة المجاورة للشيخ قاسم في مكة المكرمة.

وحين آب من رحلته الحجازية إلى سربه في المنامة ، وجده فوق ما يرام أمنًا وسلامًا ويسرًا ، ووجد زوجته قد جاءته بهدية الله إليه ، ابنه البكر.

في مسرح القتال

عاد الشيخ قاسم من مكة المكرمة يتفجر معرفة ، ونضوجًا فكريًا ، عادَ إلى البلاد وسنه تصعد إلى الثانية والعشرين من سلمها ، وأصبحَ ملفتًا لأنظار الناس ذكاءً وإدراكًا.

لذا فقد ضمه الأمير إلى قائمة مستشاريه من العلماء ، بل وأضاف إلى ذلك بأن جعله إمام مسجده الخاص ، فصار يرافق الأمير في غدواته وروحاته ، يغشي معه مجالس علية القوم في البلاد ، ويحضر معه مناسبات الأعياد والأفراح.

لم يمض على ذلك بضعة أشهر ، حتى جاء ذلك اليوم الذي لم يكن الشيخ قاسم ليعلم فيه

أنه سيفارق أميره الودود إلى الأبد ؛ فقد دقت طبول الحرب ، وخرج غرب المنامة بقيادة أميرهم علي بن خليفة ، الذي كان قد أصبح حاكمًا على البحرين وتوابعها قبل بضعة أشهر.[1]

خرجوا جميعًا لقتال الشيخ محمد بن خليفة الأخ الأكبر لأميرهم ، خرجوا سراعًا ، فقد فاجأهم نبأ نزول محمد بالجزائر[2] قرب الزلاق مع خمسمائة مقاتل من بني هاجر ، قادمين معه من شرق الجزيرة العربية.[3]

كان في جيش الأمير علي بعض بقية من آل عبدالله الطامعين في حكم البحرين ، ولكنهم لم يناوؤه حين تولى حكم البلاد قبل بضعة أشهر ، فبقي يوجس منهم خيفة ، غير أنهم لمّا علموا بنزول محمد بن خليفة وجيشه إلى البلاد ، أعطوا عليًا عهدًا بانضمامهم تحت لوائه في مقاتلة أخيه ، وأضمروا في قلوبهم نقيض ذلك تمامًا.

---

(١) كان سلف الشيخ علي في حكم البحرين ، وهو محمد بن خليفة ، قد غادر البحرين أوائل عام ١٨٦٩ إلى الكويت منفيًا من قِبَلِ أخيه علي بسبب ذيول جرتها معركة (دامسة) البحرية ، بين جيشه بقيادة أخيه علي وأهل قطر ، فخلفه علي في حكم البحرين ، ووقّع مع الإنكليز صلحًا يقضي بعدم شن حروب بحرية في مياه الخليج.

(٢) قلت : وهي المنطقة المعروفة حاليًا بـ بلاج الجزائر.(المعتني).

(٣) كان مع الشيخ محمد بن خليفة أحد أبناء عمومته من آل عبدالله ويدعى : ناصر بن مبارك آل عبدالله ، من الطامعين – آنذاك – في حكم البحرين ، وبمساعدة هذا الرجل كان تجميع الخمسمائة مقاتل من بني هاجر لمساعدة محمد بن خليفة في قتال أخيه علي ، ولعل لناصر هذا مصلحة عظيمة في اقتتال الأخوين.

كان على رأسهم كبيرهم : محمد بن عبدالله بن أحمد الخليفة[1] ، فلما قدم الأمير علي بجيشه من المنامة – قاصدًا لقاء أخيه محمد – ونزل على عين أبي زيدان ، ليمكّن أفراد جيشه من الاستحمام تطهرًا للقتال ، كما هي عادة المقاتلين المسلمين في الماضي ، كان أخوه محمد قد وصل بجيشه إلى الرفاع الغربي ، وأخذ يستعد للزحف على المنامة.

وفي أبي زيدان ، ومع جيش الأمير علي كان الشاب الشيخ قاسم قد استحم مع الجميع ، ثم لما فرغ من ذلك ، جاء إلى الأمير علي وهو جالس في المسجد حيث دنا منه وناجاه على مرأى ومسمع من بعض حاشيته ، ودون أن يفطن إلى ذلك أحد من آل عبدالله أو أصحابهم ، قال له : يا طويل العمر ، يا أبا أحمد[2] هل تأمن آل عبدالله من أن يخذلوك في القتال ، أو يقاتلوا ضدك؟ أني أشير عليك بأن تصرفهم عنك ، فلا يقاتلوا معك أخاك.

قال الأمير علي : لا يحيق مكر السوء إلا بأهله ، وقد أخذت عليهم مواثيقهم بنصرتي ، فكيف يغدرون ؟!

فرد الشيخ قاسم قائلًا : ما ضل من استشار ، والدين النصيحة ، فأطعني بصرفهم عنّا ما

---

(١) محمد بن عبدالله هذا كان يُمْني نفسه بحكم البحرين خلفًا لأبيه عبدالله الذي انتزعه محمد بن خليفة عن عرش البحرين عام ١٨٤٢ ، ولعل محمد بن عبدالله هذا قد تواطأ مع ناصر آل عبدالله من جيش محمد بن خليفة أن يقتتل الأَخَوَان ، فيفوز آل عبدالله بحكم البحرين ، وكان هذا الذي حصل لبعض الوقت.

(٢) كان الأمير يحب أن يدعى بأبي أحمد وهو ابنه الثالث ، وذلك تيمنًا بجد أبيه أحمد الفاتح ، مع أن عيسى هو الابن الأول له ، إلا أن أمه كانت إحدى بنات عيسى بن طريف زعيم عشيرة البنعلي ، الذي دخل في منازعات عشائرية مع الخليفة ، فقتل في قتال نشأ بين عشيرته وآل عبدالله من جهة ، وجيش الشيخ محمد بن خليفة بقيادة الأمير علي في قطر من جهة أخرى.

دمنا في أبي زيدان ، فإني أرىٰ السوء في عين ابن عبدالله الصحيحة [١] ، فسكت عنه الأمير وأمر بالرحيل لمواجهة أخيه. [٢]

لكأن الشيخ الشاب قاسم ينظر من سدف الغيب ، فما عتم الجيشان أن التقيا علىٰ هضبة الرفاع ، ولكن قبل أن يبدأ القتال انطلقت بعض رماح الحلفاء من آل عبدالله لتصيب من الفارس الشاب إبراهيم بن علي – حليفهم – مقتلًا ، فترديه أمام أنظار أبيه.

ثم يبدأ القتال بين الجيشين وينتهي في يومه ، علىٰ أثر سقوط الأمير علي بن خليفة قتيلًا ، وانهزام جيشه ، وكل ما استطاع هذا الجيش فعله هو أن يستنقذ بقية أبناء أميره ، وفيهم ابنه الأكبر عيسىٰ ، وقد أثخنته جراحه ، ويعود بهم إلىٰ المنامة ، إلىٰ بيت أبيهم فيها.

عاد من استطاع العودة إلىٰ المنامة من أفراد الجيش المغلوب ، وفيهم الشيخ قاسم ، الذي ما أن وصل حتىٰ دخل داره وأوصد بابها عليه ، وصعد إلىٰ سطحها ، ليشرف منه علىٰ قصر الإمارة ، ويومها رأىٰ – فيما رأىٰ – حشود بني هاجر حول القصر ، ونظر إلىٰ الشرق فرأىٰ أزقة المنامة خالية من المارة وكل حوانيتها مغلقة. [٣]

---

(١) كان محمد بن عبدالله هذا وحيد العين.

(٢) روى لي هذه الحادثة المرحوم : حمد بن عبدالله الغتم عام ١٩٦٨ ، وقد توفى عام ١٩٧٢ عن عمر ناهز المائة عام ، وقد سمع هذه الحادثة من لسان الشيخ عيسى بن علي بالذات ، وأكد هذه الحادثة لي أيضًا كل من : أحمد بن عبدالله الغتم عن مصدرها السابق ، وكذلك الشيخ محمد الحباب بن أحمد بن مهزع.

(٣) لقد انتهبت المنامة في ذلك اليوم من قبل أفراد الجيش الظافر من بني هاجر وغيرهم ، وخاصة متاجر الهنود فيها ، فإن محتوياتها قد تنوهبت وحملت إلى القطيف والأحساء ونجد وغيرها من المناطق المجاورة وبيعت هناك.

(دليل الخليج ل ، لوريمر ص١٣٥٦ القسم التاريخي / ج٣).

العودة إلى المنامة والإخلاد إلى المطالعة

وحين استقر الظافرون بأمرة الشيخ محمد بن خليفة في المنامة ، لم يأخذ الشيخ محمد أحدًا من أصحاب أخيه علي بجريرة قتالهم معه ، ومنهم الشيخ قاسم ، فقد كانت مصيبته في أخيه عظيمة.

وحين استقر الشيخ الشاب قاسم في بيته الذي كان على مرمى حجر من قصر الإمارة ، كان قد خسر كل شيء بفقد أميره الشيخ علي بن خليفة ، هنا استعرض مشاهد هذه المصيبة الدهياء ، وهي تترا سريعة أمام ناظريه ، كأنه كان يحلم بمشاهد مأسوية مفزعة يعرضها شريط سريع اللقطات ، لكأنه كان يحلم ، لولا أنه نظر إلى ما يرتديه من قميص فوقه (شلحات) أبيض به أثر من دماء وطين ، ولولا أنه تذكر ، حين نظر إلى كفيه فتأكد أنه قلّب بهما أميره حين خر صريعًا.

ثم استعرض فيما استعرض فقده لرفيق صباه إبراهيم بن علي الذي سقط كأول قتيل لرماح حلفاء أبيه.

كل هذه المشاهد المأسوية التي أخذ يستعرض لقطاتها كانت على وشك النهاية ، كان زمانها يومًا أو بعض يوم من أواخر أيام شهر أغسطس عام ١٨٦٩ .

وبانتهاء ذلك اليوم الصائف الذي حدثت فيه هذه المأساة كان قد تغير الوضع كليًا في البلاد ، لم يكن أحد ليستطيع أن يتنبأ بأن ذلك اليوم كان الحد الفاصل الحاسم بين عهود الفوضى الماضية ، وعهود النظام المقبلة.

كان الشيخ قاسم – آنذاك – يعيش فصول مأسوية لم تنته بعد ، كان الفراغ يملأ الدنيا من حوله ، فهو لم يعرف بعد مصير أخيه – في الرضاع – عيسى بن علي ، كان آخر علمه به أنه أدخل إلى قصر أبيه وهو جريح ، كان يريد أن يطمئن عليه ، وليس هناك من يتنسم أخباره له ، فَكُلٌّ قد أغلق عليه باب بيته في حي الشيوخ بالمنامة.

كان يود أن لو يفعل له شيئًا ، ولكن ماذا كان يستطيع والمقاتلون من بني هاجر وآل عبدالله يجوسون خلال المنامة ، ويتكاثفون حول القصر المغلق على أصحابه ، ولكنه علم في الغد أن عيسى قد غادر البلاد بمساعدة عمه المنتصر.

ثم علم فيما بعد أنه وصل إلى قطر وأقام عند عشيرة النعيم هناك ، وبذلك سَرَىٰ عن الشيخ قاسم الشيء الكثير من حزنه ، وساعده في ذلك وجود أخوة الشيخ عيسى مثل أحمد وخالد ، في بيت أبيهم في المنامة لم يمسسهم سوء.

وبعد أشهر قليلة وبالتحديد في ديسمبر عام ١٨٦٩ شاء الله أن يعود الطريد من قطر إلى بلاده مملّكًا عليها ، وأن يلتقي قاسم بأخيه عيسى ليعيشا حياة هادئة دامت اثنين وستين عامًا.

بعد هذا كله تفرغ الشيخ الشاب قاسم للمطالعة وبدأ في اقتناء الكتب الفقهية والتشريعية ، وبدأ من جديد في الجلوس بمسجده للدرس والوعظ والإرشاد ، وكان لا يقطع زيارته الأسبوعية للشيخ عيسى بن علي في المحرق.

وكان هذا يأنس به ويستشيره فيما يطرأ من مشكلات في شؤون الحكم ، حتى قيل أنه كان يرسل إليه في المنامة ليأتيه فيستأنس برأيه فيما جد من قضايا وأحداث في سياسة الحكم.

وفي أول أيام حكم الشيخ عيسى للبلاد كان قاضي المنامة هو الشيخ محمد بن راشد

الحسيني أستاذ الشيخ قاسم – كما تقدم – ، ولمّا أن مرض هذا وطال مرضه ، عيّن الشيخ عيسى الشيخ الشاب قاسم بن مهزع قاضيًا ، حتى شفي الشيخ الحسيني فعاد إلى قضائه.

توليته القضاء

حين تولى الشيخ عيسى بن علي الخليفة إمارة البلاد ، بدأت البحرين تدخل عصر الهدوء والطمأنينة ، وبدأ الناس – وخاصة الشباب منهم – ، يتطلعون إلى شيء من الثقافة العصرية ذات التنظيمات الجديدة نتيجة ما شاهدوه في الهند من تطورات ، في مجال الثقافة الهندية حين كانوا يسافرون مع آبائهم تجار اللؤلؤ إلى تلك البلاد.

كان ما شاهدوه هناك من تطور في الثقافة يتركز في مناهج التعليم ، وطرائق التصنيع ، ووسائط النقل ، وكل ما استجلبه المستعمر الغربي من وسائل الحضارة الغربية الحديثة.

ولكنهم وجدوا أن أخذهم لنتاج هذه الحضارة على علاته كصورة أصلية من (نيجاتيف) الفكر الغربي البحت ، لن يأخذ بيدهم إلى الاستفادة من حضارته والتخلص من نير استعماره معًا ، خصوصًا وأنه استغل وسائل حضارته لاسترقاق الشرق وتكريس عبوديته له. [1]

لذلك فقد تلمّس هؤلاء الشباب ، ومن على شاكلتهم طريقًا وسطًا لا ضرر ولا ضرار ،

---

(١) من ذلك استغلاله للتبشير والمبشرين ، وبعض المستشرقين والملحدين ، كغزو فكري متقدم ، لاستعماره الشرق ، وفرض مناهج تربوية خاصة عليه ، ساهمت في خلق أجيال لا تعرف إلا حضارته وفكره ، ومن ذلك تكريسه ومباركته للجمود الفكري – آنذاك – عند المسلمين عبر طرقه المنحرفة ودراويشه ، وخلقه لملل ونحل جديدة تضاف إلى فرق المسلمين الكثيرة ، وتستظل بظله وتغذي وجوده كالبهائية والبابية والقاديانية.

لذا فقد أصبحت مشاربهم الفكرية كلها تلتقي على آراء دعاة الإصلاح الإسلامي – الشباب آنذاك – مثل جمال الدين الأفغاني ، وعبدالرحمن الكواكبي ، ومحمد عبده ، وميرزا باقر[١] ، وشيخهم السيد أحمد خان.[٢]

على آراء هؤلاء التي تحملها كراريسهم المخطوطة بأيديهم الآتية من الهند وإيران والبلاد العربية ، وعبر مجلة العروة الوثقى[٣] – بعد ذلك – تتلمذ الشيخ الشاب قاسم ، ومنها استمد القوة إلى حرية القضاء واستقلاله ، كما كان في القرون الأولى للإسلام.

في هذا المناخ الفكري الذي عاشه الشيخ قاسم بن مهزع قبل عقد من السنين توفى شيخه الحسيني ، وكان آنذاك قاضي المنامة كما أسلفنا ، فلم يرَ الشيخ عيسى بن علي حاكم البلاد أجدر من الشيخ قاسم لتولي قضاء المنامة فعيّنه قاضيًا عام ١٨٧٥.

---

(١) العلامة الفيلسوف ميرزا محمد باقر الشهير بإبراهيم جان معطر ، ولد في فارس ، وتنقل إلى الهند والصين وآسيا الوسطى وأوروبا ، ثم بغداد واستقر في لندن أواخر القرن التاسع عشر، فأخذ على عاتقه مراسلة مجلة العروة الوثقى في باريس عام ١٨٨٤ ، فظل يترجم لها ما تنشره الصحف البريطانية عن الشرق الإسلامي ، ويرسله إليها لتنشره ، ولما احتجبت العروة عن الصدور جاء إلى بيروت وتزوج بها وأنجب ، ثم ضايقته الدولة التركية فغادر بيروت إلى طهران ومكث فيها ثلاث سنوات ثم توفي بها. شاعر وله دراسات عقائدية باللغة العربية والفارسية والهندية ، ويجيد بالإضافة إلى هذه اللغات : اليونانية والعبرية والإنكليزية كأحد أبنائها اللغويين. (الدكتور أدوارد برن ، في مقدمة مجلد العروة الوثقى)

(٢) العلامة المصلح الكبير السيد أحمد خان العربي الأصل ، ولد بدهلي عام ١٨٠٧ وأنشأ بها جامعة عليكرة المشهورة ، وله كتاب في تاريخ دخلي ، توفى عام ١٨٩٨.

(٣) المجلة العربية المشهورة لمنشئها بباريس السيد جمال الدين الأفغاني ، بمعاونة الإمام محمد عبده ، صدر العدد الأول منها يوم الخميس ١٣ مارس ١٨٨٤ ، وتوقفت في أواخره ، بعد صدور ثمانية عشر عددا منها ، كانت تصدر في باريس وتوزع في الشرق فتقض مضاجع الإنجليز في الهند والسودان ومصر.

كان الشيخ قاسم قد شغل هذا المنصب قبل سنة حين غياب شيخه الحسيني في الحج ، كان ذلك لمدة ستة أشهر فقط ، وفيها أخذ الشيخ قاسم فكرة عملية عن القضاء ومشاكله ، وفيها أظهر من البراعة في إحقاق الحق بين المتخاصمين ما أدهش الناس ، كأنه يصدر أحكامه عن إلهام رباني ، فلما تولى القضاء أتخذ من بيته مجلسًا له ، وكان عمره يومذاك ثمان وعشرين سنة وأشهر.

حين تولى الشيخ الشاب قاسم قضاء المنامة ، كان هناك قاضيين رسميين غيره ، أحدهما جعفري المذهب ويقيم في بلاد القديم ، والآخر سني المذهب ويقيم في مدينة المحرق. لكن الشيخ قاسم بعد فترة وجيزة من توليه القضاء في المنامة ، وبعد ما عرف عنه من ذكاء أبان الستة أشهر التي قضاها في القضاء نيابة عن شيخه الحسيني ، أصبح القاضي الأول في البلاد.

مذهبه

كان الشيخ قاسم مالكي المذهب ، وهو مذهب حكومة الشيخ عيسى بن علي ومن قبله من حكام البحرين ، فبسبب أن جميع الذين استوطنوا البحرين من القادمين من الزبارة بقطر آنذاك وأغلبهم من القبائل العربية كانوا مالكيي المذهب ، أصبح هذا المذهب هو المذهب السائد منذ أواخر القرن الثامن عشر.

لكنه كان من القادمين من الزبارة من هم شافعيو المذهب ، وأغلبهم من العلماء والتجار ، وكان من بين القادمين أيضًا في نفس الوقت بعض أرباب الحرف[1] من أهل

(١) كل هذه العينات السكانية نجدها ممثلة بوضوح في مدينة المحرق ، وذلك بسبب أنها أول منطقة في

الزبارة ، كالصاغة والحياك والبنائين الجعفريي المذهب ، وإن من بعض القادمين كذلك من هم من الحنابلة ، كالعلماء من بيت ابن جامع.

وحين جاء الشيخ قاسم إلى القضاء كان كل أتباع هذه المذاهب الإسلامية ومن هاجر إليهم في البحرين – بعد ذلك – من عرب السواحل الفارسية ، ومن الإيرانيين ، وأولئك الذين جاءوا من شبه جزيرة العرب نجد والأحساء والقطيف ، من سنيين وشيعة ، قد استوطنوا البحرين ، واستقطبهم فيها المذهبان السني والجعفري.

وكان لهذين المذهبين قضاة – كما أسلفنا- يقضون بين أتباعهم بأمر الحاكم ، فلما جاء ابن مهزع جعل الحاكم يحيل إليه كل القضايا المدنية المهمة المستعصية الحل ، لذا فقد أصبح يومها قاضي القضاة في البلاد ، يحكم بين الجميع بما أنزل الله لا يتزحزح عنه قيد أنملة ، فلقد عرف عن الشيخ خلال سني قضائه التي تزيد على نصف قرن أنه كان لا يرهب أي قوة تقف في وجه تنفيذ الحكم الشرعي الذي يصدره. [1]

جزر البحرين تلقت هجرة أهل الزبارة إليها عام ١٨١٠ بصورة جماعية ، أضف إلى ذلك من انتقال حكومة الزبارة إليها في هذه الهجرة ، على أنه مما يسترعي النظر وجود مساكن العرب من أرباب الحرف قريبة جدًا من مساكن حكام البحرين على ربوة المدينة ، وهي أول موقع سكن فيها ، وذلك يفسر حاجة الحكام الماسة – آنذاك – إلى أرباب الحرف من العرب ، فإذا ما التمسوهم وجدوهم قريبًا منهم ، وكذلك يفسر أيضًا أنهم كانوا يعيشون في الزبارة ، بمثل هذا النمط.

(١) عرف عن الشيخ قاسم أنه أصدر مرة حكمًا شرعيًا بقطع يد سارق من أبناء كبار القوم في المنامة ، فجاءوا يتشفعون في رد الحكم فلم يفدهم ذلك ، واستعانوا بأمراء وتجار من علية القوم فلم يستطع هؤلاء وقف تنفيذ حكم الشيخ ،، فنُفذ.

القضاء على عهد قضائه

جل القضايا المدنية كانت تحال للشيخ قاسم بما فيها قضايا الأحوال الشخصية للمسلمين السنيين ، مع الأخذ بعين الاعتبار قلة تلك القضايا ، وخاصة الأحوال الشخصية منها ، ومرد ذلك أن النظام القبلي في البحرين كان هو السائد.

فقد كان العرف والعادة يقضيان بأن رئيس القبيلة هو المنوط به حل منازعات أفراد قبيلته في حيه[1] ، وكانت جل هذه المنازعات تتركز في أحوال شخصية ، ومدنية غير معقدة.

وفي عصر قضاء ابن مهزع كان العرف السائد هو أن لرؤساء هذه القبائل إلمام عام بأحكام الأحوال الشخصية الخاصة للمسلمين ، نتيجة تتلمذهم على بعض الفقهاء في أحيائهم.

ففي تلك الأيام كان من المسلّمات المألوفة أن يمر كل الأبناء البارزين في قبائل البحرين بمدرسة دينية أو شيخ دين في مسجد ، للأخذ عنه معرفة الحلال والحرام ، وأصول الدين وفقه العبادات والمعاملات في الإسلام ، وبعضهم يستمر في هذه الدراسة حتى يأخذ الإجازة من شيخه.

وكان كل حاكم يأتي لحكم البلاد – آنذاك – يؤيد هذا العرف السائد ولا يخالفه ؛ لأن

---

(١) كانت كل قبيلة تتخذ لها حيًا تسكنه ، فتأتي إلى موقع في العراء لا يشاركها فيه أحد فتبني مساكنها فيه ، وهذا ما يشاهد حتى الآن بوضوح في كل من المنامة والمحرق والحد والرفاع وما إليها.

فيه راحته وطمأنينته ، في الوقت الذي يشعر رؤساء هذه القبائل بأن لهم من الأمر شيئًا في إدارة شؤون البلاد ، فلا يحاولون إثارة القلاقل ضده ، إلا إذا منعهم بعض عطائهم السنوي إن كان ميسور الحال.

لهذا تراه يجزل لهم أعطياتهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، و يستشيرهم فيما يحزبه من أمر ، حتى يؤكد لهم أن لهم ما يعيشون من أجله في هذه البلاد ، فكان مثل هؤلاء من رؤساء القبائل العربية في البحرين بعض مستشاري الشيخ عيسى بن علي ، في وقت لم تفرض فيه الحماية البريطانية أي مستشار أجنبي على البلاد. [1]

لكن الشيخ قاسم عاش مدة قضائه كلها ولم يقبل مشورة من أحد من هؤلاء ، فطبيعة عمله كانت تحتم عليه ألا يأنس من هؤلاء برأي ما دام ينفذ فيهم شرع الله.

وحين تولى الشاب قاسم بن مهزع القضاء كان الشيخ عيسى بن علي قد عيّن – منذ توليه الحكم – أمراء من قِبَلِه وجعلهم بمثابة المحافظين في المدن المهمة في البلاد ، فللمنامة أمير وللمحرق أمير وللرفاع أمير، وجعل تحت إمرة كل أمير مجموعة من الشُرَط (الفداوية)[2] ، لحفظ الأمن في البلاد ، فهم نواطير ، وهم عسس ، وهم فوق

---

(١) كان أول مستشار إنكليزي عيّنته بريطانيا في البحرين هو السير تشارلس بلكريف من عام ١٩٢٦ – ١٩٥٧ ، وقد جاء إلى البحرين باختيار الميجر ديلي له كمستشار لحاكم البحرين آنذاك الشيخ حمد بن عيسى الخليفة.(مذكرات تشارلس بلكريف).

(٢) أي الفدائيون وهو اسم يطلق – آنذاك – على فئة الحرس الخاصة بحاكم البلاد في كل من إمارات الخليج والجزيرة العربية ، ثم تعمم إطلاقه على ذلك على كل من يقوم بأعمال الشرطة في البلاد وهذه الفئة الحرسية كانت موجودة في البحرين ، وليس لها زي خاص ، حتى الستينات ، ثم تحولت إلى فئة من قوة الشرطة تختص بالخفارة.

ذلك الأداة المنفذة لأمر حاكم البلاد ، وكان أمراء هؤلاء (الفداوية) اليد الطولى لابن مهزع في تنفيذ أحكامه الشرعية.

كانوا لا يتقاعسون عن تنفيذ أحكامه ، يقومون بذلك عن طواعية واقتناع نفسي ، معزز بالتجارب بأن أحكام الشيخ قاسم لا تصدر إلا بالحق والقسط ، فهم يعتقدون أن التقاعس عن تنفيذها اشتراك في جرم من صدرت ضده ، ومعنى ذلك إغضاب الشيخ ، وفي إغضابه معصية لحاكم البلاد.

على هذا المنوال قضى الشيخ قاسم مدة قضائه الطويلة كقاض للقضاة في هذه البلاد ، وفي عهد قضائه تولى قضاة مشهورون القضاء في مدن البحرين ، ومنهم من عزل الواحد تلو الآخر ، مثل الشيخ عبدالرحمن بن جعفر المالكي ، والشيخ عبدالرحمن بن عبداللطيف ، والشيخ شرف اليماني[1] ، وهو باق كمصدر للأمن والطمأنينة لأهل البلاد.[2]

---

(١) (التحفة النبهانية ص٢٣٧) لمحمد بن خليفة النبهاني.

قلت : ينظر " التحفة النبهانية" (ص١٤٣) الطبعة الثانية دار إحياء العلوم.(المعتني).

(٢) في أوائل القرن العشرين أخذت قبضة سلطة الحماية البريطانية تشتد على المواطنين في البلاد ، فمرة تستغل عادة بيع الرقيق التي كانت آنذاك في طريق الزوال ، ومرة تستغل المشاجرات والمشاحنات بين المواطنين من جهة والأجانب من جهة أخرى ، أولئك الذين دائمًا ما يظهرون الصلف والغرور أثناء استغلالهم لموارد البلاد ، يحفزهم إلى ذلك ويشجعهم وقوف تلك السلطة إلى جانبهم ، إذ أنها دائما ما تمارس – في مثل هذه المشاجرات – مهمة الخصم والحكم معًا في هضم حقوق أهل البلاد ، كحادثة الوكيل التجاري الألماني عام ١٩٠٤.

فلما كان عام ١٩١١ أرادت سلطة الحماية أن تجرد أهل البلاد من سلاحهم الذي هو سببهم الأول في

تولية قضاء المحرق فوق قضاء المنامة

وفي عام ١٩١١ حين طُرِدَ قاضي المحرق الشيخ اليماني ، كان لهذه الحادثة ، وما جرّت من ذيول أثر سيء على الشيخ قاسم ، فسيستشار ، وستؤخذ موافقته في تعيين خلف لذلك القاضي المعزول والبحرين آنذاك تنوء بحملها من العلماء الفقهاء في التشريع الإسلامي ، ومنهم من يفوق القاضي المعزول علمًا وتفقهًا.

عزتهم وكرامتهم ، وحتى لا يكون في أيديهم شيء من القوة كي يدافعوا بها عن أوطانهم في ظروفهم الحرجة آنذاك ، فأمر معتمدها البريطاني بمنع الاتجار بالسلاح ، وبما أن هذه الحادثة لها مساس بأحد القضاة في البحرين على عهد ابن مهزع فلندع النبهاني في تاريخ عن البحرين يحدثنا عنها، قال :" أمر معتمد بريطانيا بمنع بيع السلاح والرقيق في البحرين ، فهاجت الأهالي وماجت ثم اجتمعت في بيت الحاكم سمو الشيخ عيسى وطلبوا منه أن يضع حدًا لاعتداء الإنكليز ، فأجابهم بعجزه ما لم يتفقوا معه على رأيه ، وحثهم بالتعاضد وأن يكونوا يدًا واحدة على من سواهم ، ليتمكنوا من النهضة لاسترداد حقوقهم المغصوبة ، فتكفلوا له بذلك وطلبوا أن ينشئ لهم مجلسًا يضم رؤسائهم وذوي الرأي منهم ، ويخول لهم حق انتخاب القضاة الشرعيين ورؤساء الدوائر ، وعزل غير الوطنيين ، واتخاذ الأسباب اللازمة لحفظ حقوقهم ، فأجاب الحاكم طلبهم وأعطاهم أوراقا ووثائق بذلك ، وأخذ منهم أخرى يتعهدون فيها بالسمع والطاعة ولزوم أوامره ما دام سمو الحاكم متبعًا لمشورة ذلك المجلس.

ولما تم إنشاء هذا المجلس على أحسن ما يرام وعلمت به الأعداء ، تيقنت بأنه الضربة القاضية على سياستها ، فسعت إلى حله ، حتى أوعز إلى قاضي المحرق الشيخ شرف اليماني فأتى ذلك القاضي إلى سمو الحاكم ووسوس له بأن هذا المجلس عقد على خلع عظمتكم.

فأوجس الحاكم في نفسه خيفة من ذلك المجلس ، فأصدر في الحال أمره بحله فانحل ، وتفرقت أعضاؤه ، ثم أعلن بأن من يفه ببنت شفة في مسألة المجلس يسجن ، وبذلك نال العدو بغيته وتمكنت قدمه ، ولكن سرعان ما تكشفت أحوال القاضي المذكور فخلع وطرد ، وأشفق على نفسه فلجأ في الحال إلى دار المعتمد البريطاني طالبًا الأمان على نفسه." (التحفة النبهانية ص٢٥٠-٢٥١ طبع القاهرة).

قلت : ينظر " التحفة النبهانية" (ص١٥٢-١٥٣) الطبعة الثانية دار إحياء العلوم.(المعتني).

وعلى الشيخ قاسم أن يجتهد في اختيار قاضي المحرق الجديد من بين أفراد هذه التركيبة المتجانسة من علماء الدين في البلاد ، إن طريقة الاختيار هذه صعبة ، وعلى الذي يمارسها في مثل موقف الشيخ قاسم في المسؤولية القضائية للبلاد أن يستعمل مقاييسه العلمية في التشريع الإسلامي ، مع ذكائه وفراسته لاختيار القاضي الجديد ، الذي يجب أن تتوفر فيه مزايا قاض عليهم ، لمدينة تعج بآلاف السكان ، وهي العاصمة ومقر الحكومة آنذاك.

والشيخ قاسم الذي هو في اعتبار حكومة البلاد آنذاك أنه هو قاضي القضاة في البحرين ، وأن قضاتها وعلمائها وأهلها كانوا يعتبرونه كذلك ، اعترافًا منهم بعلمه ونزاهته[1] ، وكان يتألم كثيرًا من عدم وجود الوعي الإسلامي عند كثير من قضاة البلاد ، وعلمائها بين معاصريه منهم ، مما كان له تأثير سيء في تقدم البلاد ، عبر حوادث كان أقربها إلى ذهن الشيخ قاسم : تلك الحادثة التي هبَّ فيها علماء وقضاة من الذين لا وعي إسلامي لديهم ، وعلى رأسهم كان القاضي شرف بن أحمد اليماني قبل ذلك يقاومون بعض الإجراءات الصحية الوقائية التي كانت تقوم بها الحكومة آنذاك أثر انتشار وباء الطاعون في البحرين.[2]

وكان على الشيخ قاسم أن يضع في اعتباره ظروف البلاد الحرجة التي تمر بها آنذاك ، وكان أشدها حراجة ما خلّفه حل المجلس الاستشاري البحريني عام ١٩١١ من قبل

---

(١) بريطانيا أيضًا كانت تعترف بالشيخ قاسم رئيسًا للقضاة في البحرين ، راجع فصل : دور الشيخ قاسم في العمل الوطني ، المرحلة الثانية ص٩٤.

قلت : هذه الإحالة على الطبعة الثانية للكتاب الأصل " القاضي الرئيس قاسم بن مهزع" (المعتني).

(٢) دليل الخليج لـ ج لوريمر (ص٢٥٧٦ و ٣٥٧٧).

الإنكليز ، وارتباط اسم قاضي المحرق المعزول بذلك الحل ، وما خلّفه من إجراءات تعسفية مما ترك الباب مفتوحًا لنقمة أهل البلاد على ذلك القاضي ، وسحب ذيول هذه النقمة على كل العلماء والقضاة مما خلق فجوة واسعة بين الناس وعلمائهم ، وترك الفرصة سانحة لطلائع الاستعمار من المبشرين في البلاد أن يشككوا الناس في قدرة الدين الإسلامي عبر علمائه على مقارعة الاستعمار والظلم والطغيان.[1]

من هذه المنطلقات وأمثالها استعرض الشيخ قاسم علماء البلاد من معاصريه ، فلم يجد من تستكمل فيه جميع المواصفات التي ينشدها في واحد منهم ، ورأى أن مسئولية تولي قضاء المحرق – آنذاك – مسئولية عظيمة ، ولا يستطيع أن يجزم بتزكية واحد من هؤلاء العلماء لشغل ذلك المنصب ، فيأتي بمثل ما جاء به الشيخ شرف وأمثاله ، فيحدث ما لا تحمد عقباه فيتهم الشيخ قاسم في ثاقب نظره وفراسته.

لهذا كله فقد أعد للأمر عدته ، فلما استدعاه الحاكم عيسى بن علي واستشاره فيمن يولي من العلماء للمنصب الشاغر بعزل الشيخ شرف منه ، أجابه بأن يوليه هو ذلك المنصب الشاغر ، فلما رد عليه الحاكم قائلًا : والمنامة يا شيخ قاسم؟! قال الشيخ : والمنامة أيضًا ، سأجعل ثلاثة أيام في الأسبوع للمنامة ، ومثلها للمحرق ، فولّاه الحاكم قضاء المحرق ، وأقطعه بيتًا ليجلس فيه للقضاء.

وبذلك كلّف نفسه بمسئولية جديد فوق مسئوليته كقاض أول في البلاد ، مسئولية كان سيكلف بها غيره ويبقى ضميره يتطوح بين القلق والاطمئنان ، لكنه اختار أن يأخذها على عاتقه فإن ناء بها أوده ، فسيرتاح بها ضميره.

---

(١) المنار / ٥/ م١٦ / ص٣٧٩/ ١٩١٣

في الأيام الأولى من تولي الشيخ قاسم قضاء المحرق ، كان يأتي إليها في الصباح من مقر سكناه في المنامة ، ويغادرها في المساء ، لكنه حين رأى أن قضايا المحرق الحقوقية : من تجارية وأحوال شخصية وجنائية في بعض الأحيان تفوق قضايا مدن البحرين مجتمعة ؛ بسبب أنها مقر الحكومة آنذاك وتتركز فيها تجارة اللؤلؤ ، وتجارة النقل البحري (القطاعة) ، ورأى عسر المواصلات البحرية بينها وبين المنامة ، اضطر أن يقيم فيها نصف أيام الأسبوع المقررة لها لا يقطعها بالذهاب إلى المنامة ، فكان يسكن في البيت الذي كان يجلس فيه للقضاء طيلة تلك الأيام ، ثم تزوج في المحرق من إحدى بنات عائلة فليفل.

وعلى هذا المنوال استمر الشيخ في قضائه بالمحرق حتى عام ١٩٢٣ ، فكانت مدة قضائه فيها حوالي اثني عشر عامًا[١] ، أما خلال تلك المدة وحين تحدث قضايا طارئة في المحرق ويكون الشيخ قاسم في المنامة ، فإن الشيخ عيسى يحولها إليه باستمرار ليقضي فيها وهو بمجلسه في المنامة.

*****

(١) بقي الشيخ كذلك حتى جاءه كتاب عام ١٩٢٣ من الميجر ديلي المعتمد البريطاني في البحرين آنذاك بمنعه من الذهاب إلى المحرق .